



لم تمر أيام صعبة ومحرجة على التدخل الإيراني في سوريا، المتواطد منذ نحو ست سنواتٍ حافلةً بالإنجازات والمكتسبات المترفرقة، كمثل هذه الأيام المتدرجـة من سيءٍ إلى أسوأ، بالنسبة لحاضر ذلك الوجود ومستقبله، وهو الذي بدا حتى الأمس القريب وجودـاً راسـخـاً، عميقـاً وطـوـيلـاً المدى، بل وغـيرـ قـابـلـ لـلـاحـتوـاءـ، بعدـ أنـ استـثـمـرـتـ فـيـهـ الجـمـهـورـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ كـثـيـراًـ منـ الأـمـوـالـ وـالـدـمـاءـ وـالـدـهـاءـ، وـكـرـسـتـ عـبـرـهـ حـضـورـاًـ إـقـلـيمـيـاًـ طـاغـيـاًـ لـاـ يـشـقـ لـهـ غـبـارـ، وـجـعـلـتـ مـنـهـ الـحـلـقـةـ الـمـرـكـبـةـ الـصـلـبـةـ فيـ حـضـورـهـ الـإـمـبـرـاطـورـيـ الـمـمـتدـ منـ بـلـادـ فـارـسـ إـلـىـ شـوـاطـئـ لـبـانـ.

تضـافـرتـ، فيـ شـهـرـ ماـيـوـ/ـأـيـارـ الـمـنـصـرـ، جـمـلـةـ طـوـيـلـةـ منـ الـعـوـاـمـلـ وـالـمـتـغـيـرـاتـ الـمـثـيـرـةـ لـلـانـتـبـاهـ، بـدـأـتـ فيـ التـاسـعـ مـنـهـ، حينـ اـسـتـدـرـجـتـ إـسـرـائـيلـ ردـ فـعـلـ إـيـرـانـيـاـ، ضـعـيفـاـ وـمـحـدـودـاـ عـلـىـ الغـارـةـ الـتـيـ كـانـ قدـ شـتـهـاـ سـلاـحـ الـجـوـ إـسـرـائـيلـيـ عـلـىـ مـطـارـ "ـتـيـفـورـ"ـ، حـيـثـ القـاعـدـةـ إـيـرـانـيـةـ الـأـكـثـرـ أـهـمـيـةـ. وـمـعـ أـنـ الـفـعـلـ إـسـرـائـيلـيـ الـمـبـيـتـ جـاءـ وـاسـعـاـ وـمـؤـلـمـاـ، شـمـلـ نـحـوـ خـمـسـيـنـ هـدـفـاـ، إـلـاـ أـنـ رـدـ فـعـلـ طـهـرـانـ كـانـ صـغـيـراـ بـكـلـ مـقـايـيسـ الـوعـيـ وـالـتـهـيـدـ الـمـعـهـودـةـ مـنـ نـظـامـ الـمـالـيـ، وـمـثـيـراـ لـخـيـبةـ الـأـمـلـ مـنـ الـمـفـعـمـيـنـ بـالـخـطـابـ الـرـائـجـ حـولـ مـحـوـ الـكـيـانـ الصـهـيـونـيـ مـنـ الـخـرـيـطـةـ فيـ غـضـونـ سـتـ دـقـائـقـ وـنـصـفـ الـدـقـيقـةـ، قـائـلـينـ، فـيـ قـرـارـةـ أـنـفـسـهـ؛ـ أـهـكـذـاـ يـكـونـ الـأـنـتـقامـ؟ـ

قـبـلـ يـوـمـ مـنـ تـلـكـ الـضـرـبةـ الـتـيـ مـثـلـتـ نـقـطـةـ تـحـولـ فـيـ مـسـارـ الـمـواجهـةـ إـسـرـائـيلـيـةـ إـيـرـانـيـةـ، الـجـارـيـةـ حـتـىـ ذـلـكـ الـوقـتـ عـلـىـ نـارـ هـادـئـةـ، كـانـ رـئـيـسـ حـكـوـمـةـ دـوـلـةـ الـاحـتـالـلـ، بـنـيـامـينـ نـتـنـيـاهـوـ، فـيـ مـوـسـكـوـ لـحـضـورـ اـحـتـفـالـاتـ رـوـسـيـاـ بـالـنـصـرـ فـيـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ الـثـانـيـةـ. وـقـبـلـ يـوـمـيـنـ فـقـطـ، كـانـ الرـئـيـسـ الـأـمـيـرـكـيـ، دـوـنـالـدـ تـرـامـبـ، يـعلنـ اـنـسـحـابـهـ مـنـ الـاـتـفـاقـ الـنـوـوـيـ مـعـ إـيـرـانـ. وـفـيـمـاـ لـمـ تـعـرـفـ نـتـائـجـ زـيـارـةـ نـتـنـيـاهـوـ عـلـىـ الـفـورـ، كـانـ اـنـسـحـابـ الـأـمـيـرـكـيـ مـنـ الـاـتـفـاقـ الـنـوـوـيـ مـدـعـاـةـ اـبـتـهـاجـ إـسـرـائـيلـيـ مـنـقـطـعـ النـظـيرـ، وـهـوـ اـبـتـهـاجـ تـرـجـمـ نـفـسـهـ عـلـىـ أـرـضـ الـوـاقـعـ فـيـ تـلـكـ الـضـرـبةـ الشـامـلـةـ الـتـيـ اـفـتـحـتـ زـمـنـاـ جـدـيـداـ، أـكـثـرـ حـدـدـاـ، وـأـوـسـعـ مـدـىـ مـنـ ذـيـ قـبـلـ، فـيـ

مدار المواجهة غير المباشرة، الدائرة بين القوتين المتبازتين على الأرض وفي السماء السوريتين .

لم يمض سوى وقت ضئيل للغاية، حتى تبين أن تغيراً ما قد طرأ على الديناميات الإقليمية المترادفة تحت غلالة رقيقة، فبعد أسبوع من زيارة نتنياهو تلك، كان بشار الأسد في موسكو يصعد لرغبة روسية معلنة على رؤوس الأشهاد، بضرورة انسحاب القوات الأجنبية من الأراضي السورية. وفي تلك الأثناء، كان وزير الخارجية الأميركي، مايك بومبيو، يعلن بنود استراتيجية بلاده إزاء إيران، ومنها شرط انسحاب إيران من سورية، الأمر الذي شد من أزر إسرائيل، ومنحها أكثر من ضوء أخضر واحد، لمواصلة عمل دُوّوب طوبل المدى، لإخراج إيران من نقطة ارتكاز مشروعها التوسيعى شرق البحر المتوسط .

منذ ذلك الوقت، وهو وقت قصير جداً، يمكن ملاحظة عدة متغيرات متصلة جميعها بإيران حسراً، أولها احتفاء التهديد الذي درجت عليه طهران بالانتقام، في كل مرة كانت تتعرض فيها لضربة إسرائيلية، وثانية صمت آيات الله وتجاهلهم هذه الضربات الموجعة والمتصاعدة، امتناعاً لمقوله و"إذا بلitem فاستتروا". أما ثالثها فقد تمثل في اكتشاف إيران المروع أكثر من أي وقت مضى، أمام سلسلة لا نهاية لها من غارات الطائرات الإسرائيلية، بما في ذلك طائرات الشبح إف 35، زد على ذلك جسارة إسرائيلية متزايدة على إيران، وثقة بالنفس لا سابق لها، وصفتها صحيفة هارتس بأنها تبجح، أو كمن يضع إصبعه في عين عدوه .

في ظل مثل هذه الأجواء المواتية لممارسة أشد تجليات العدوانية الفظة، وإبراز سائر مظاهر الغطرسة التقليدية، بدأت إسرائيل ما يشبه حرب استنزاف للوجود الإيراني في سورية، وتخلى عما تعرف باسم سياسة الغموض البناء المتبعة، وبالغت كثيراً في ضغوطها السياسية والحربيّة، وأمعنت في الاستقواء على بلدٍ لا سلاح جوي له يعتد به، حيث راحت تغير على نحو شبه يومي (كل 36 ساعة تقريباً) على مختلف الأصول والممتلكات الإيرانية، وتطلب انسحاب كامل القوات الإيرانية من جميع الأراضي السورية، مستغلة ازياد الهوة بين موسكو وطهران من جهة أولى، وتعاظم الضغط الأميركي على ما يسميه تراثب الدولة الأولى الراعية للإرهاب في العالم من جهة ثانية .

وعلى نحو متزامن إلى أقصى الحدود، مع السياسة الأميركيّة الهجومية المعلنة تجاه إيران، راحت واشنطن تهدّد، فيما أخذت تل أبيب تنفذ وتقتص من هذا الوجود الذي بات خروجه من سورية أقرب ما يكون إلى مطلب روسيّ الأميركي إقليمي عربي مشترك، وهو ما أحدث وضعاً وجدت فيه إيران نفسها أمام جحيم فتح عليها من السماء، لا راد له، يستنزفها على طول الخط، ويقوّض كل منشأة أو قاعدة عسكرية معروفة لها في الجغرافيا السورية، و يجعلها في وضع شبه مستحيل، بين تحمل هذا العذاب إلى أجل غير معلوم وتجرب كأس السم مرة أخرى، على غرار ذلك الكأس الذي تجرّعه آية الله الخميني عام 1988 في نهاية سنوات الحرب الطويلة مع العراق .

قد يكون من المبكر استنتاج أن إيران ستُرغم، في المدى المنظور، على المفاضلة بين هذين الإكراهين المريدين، تحمل خسائر بشرية ومادية ثمينة من دون طائل، أو الانسحاب من سورية، هكذا من غير حصة عادلة من الكعكة السورية المسمومة، لا سيما أن كلاً البديلين يعني نهايةً مدويةً لمشروعها التوسيعى في المنطقة العربية، ويؤكد لكل من كان لديهم الشك في أن إيران مجرد نمر من ورق، هي بالفعل ظاهرة صوتية، استمدت عناصر قوتها من مظاهر ضعف المحيط المجاور، ناهيك عن استثمارها الناجح لما سمته مظلومية وكلائها الشيعة العرب هنا وهناك، غير أن عامل الزمن سيتولى وحده إرغام الدولة التي تعذّب نفسها بنفسها الآن، (تنكر ذلك وتهوّن منه وتعتم عليه) على طي صفحة هذه المغامرة المكلفة التي أخذت شمسها تميل إلى الغروب، تحت ضغط تحولاتٍ كبرى، لم تخطر على بال أحد من قبل .

ولعل نقطة الانعطاف الحاسمة في المسار الإيراني المتدرج من درك إلى درك أسفل لن تتأخر طويلاً، وقد تحدث في أي لحظة، وذلك على ضوء متغيرين رئيسيين محتملين في المدى القريب؛ أولهما الانفجار المحتمل في العلاقة مع روسيا، وظهور ذلك إلى العلن بصورة سافرة، تحت ضغط شعور إيراني ثقيل بالخداع، إن لم نقل الخيانة، من جانب الدولة الكبرى

الحليفة حتى الأمس القريب، خصوصاً مع كل هذا التمايل الروسي الإسرائيلي حد التطابق، إزاء الوجود العسكري الإيراني المستهدف قياماً وفعوداً، من دون أي تحفظ، أو ربما تشجيع، من الشريك في معركةٍ طويلةٍ لم تضع أوزارها بعد، وثانيهما تقدم العقوبات "التي لا مثيل لها في التاريخ" المقدّر لها أن تثقل على أيدي نظام الملالي أكثر من أي وقت مضى، وتجعل من قدرته على الاستمرار في المكابرة والعناد والمراؤحة عمليةً مكلفةً، ولا فائدة منها .

وهكذا يتضح لكل ذي لب أن إسرائيل، المستنودة بموقف روسي مباغت، وآخر أمريكي متعمق، صنعت لنفسها هذه الفرصة النادرة، وحققت لذاتها هذا الاختراق غير المسبوق في جدار ما ظلت تزعم أنه خطر مصيري، يهدّد وجودها من أساسه، وذلك بعد أن استغلت التحولات الأشمل في ميزان القوى الدولية بشأن سوريا، هذه التحولات التي لم تتقاطع أبداً إلا عند المصلحة الاستراتيجية للدولة المتحفزة لحصد الجوائز بالجملة، حيث نسقت تل أبيب التنااغم بينها وبين روسيا، ليصبّ في صالح الخطة الأميركيّة إلى طرد إيران من محور اتكائها الأساسي في المشرق العربي، ووظفت عناصر التفوق الجوي لديها على نحوٍ امتنك فيه زمام المبادرة بالكامل، الأمر الذي مكّنها من الاستقواء على إيران، حشرها في الزاوية، وجعل كل خياراتها في سوريا شبه مستحيلة.

المصادر:

العربي الجديد